فضيلة
محمد المختار
ولد امباله

هو رئيس المجلس الأعلى للفتوى والمظالم، كما أنه مستشار برئاسة الجمهورية الإسلامية الموريتانية، أشرف على كثير من رسائل تخرج الطلبة بالمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية.

فضيلة محمد المختار ولد امباله

بسم الله والحمد لله والصلاة على أشرف المرسلين سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وعلى جميع إخوته من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامهم عليهم أجمعين ، وبعد؛

في البداية نشكر دولة الإمارات العربية المتحدة على استضافتها مثل هذا النوع من المؤتمرات وتوفيرها الجو للنخب الفكرية من العالم أن تلتقي وتتبادل الآراء والأفكار وتناقش الموضوعات التي تهم الساحة العالمية .

كما نشكر مجلس حكماء المسلمين برئاسة الإمام الاكبر فضيلة أ.د. أحمد الطيب على الدعوة الكريمة التي وجهت إلينا، وهذه المبادرة الطيبة المتمثلة في عقد هذا المؤتمر العالمي العلمي الذي يناقش موضوعا من أهم الموضوعات على الساحة ألا وهو الأخوة الإنسانية من حيث مفهومها وضوابطها والتحديات التي تواجهها، وعلى من تقع مسؤولية تجسيدها وتاريخها وتبيانها حتى تتحقق بين الأفراد والمجتمعات .

وهنا أقول: إن الأخوة من أصل مصدر "أخا الرجل"، وتطلق أيضا على قرابة الأخ من أخيه؛ وهي تطلق باعتبارات مختلفة تدل على المعنى الجامع بين الأخوين أو الأخوة، وقد تطلق باعتبار ديني أو مذهبي، وقد تطلق باعتبار وطني أو النسبي وذلك هو الأصل فيها وقد يكون النسب قريبا فتضيق دائرتها وقد يكون بعيدا فتتسع الدائرة،

فكلما بعد المعنى الجامع اتسعت دائرة الأخوة، فلذا كانت الأخوة الإنسانية أوسع هذه الدوائر وأشملها لأنها منسوبة إلى الإنسان؛ وهو الاسم الجامع للبشرية كلها كما هو اسم لأبي البشرية: وهو آدم عليه السلام، كما جاء في لسان العرب لابن منظور.

والإنسان مشتق من الأنس وهو ضد الوحشة كما قال الأزهري، والأخ -يقول بعض أهل اللغة إنه سمي "أخا" لأنه قصد أخيه، فأصله من "وخا" أي "قصد" فقلبت الواو همزة؛ وإذا كان أصل الأخ من الموافقة في القصد وأصل الإنسان من الأنس الذي هو ضد الوحشة؛ فمعناه أن هذه الأخوة المكونة من هذين المفردين تقتضي الألفة وعدم التنافر في المقاصد.

وبعد هذه التوطئة القصيرة أود أن أبين ما يلي:

أولا : أن هذه الأخوة لا يمكن المكابرة بها؛ فهي ثابته باليقين لأن الناس كلهم يرجعون إلى أصل واحد ويجمعهم أب واحد؛ قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:1].

ويقول ﷺ : ﴿إن ربكم واحد وإن أباكم واحد﴾؛ فالناس كلهم مشتركون في أصل النسب ومشتركون في التكريم؛ قال تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾، ومشتركون في الصورة الحسنة: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ ، ومشتركون في احترام الأنفس: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ... ﴾.

وقال تعالى ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:32]، فالنفس هنا تأتي مُطْلَقَةً ليست مقيدة بكونها نفسا مؤمنة وغير مؤمنة. ومتساوية في خطاب التكليف والجزاء على الأعمال على اختلاف دياناتهم ولغاتهم وثقافاتهم تساوي يجعلهم أخوة في هذا الجانب؛

فالاختلاف في الدين لا ينفي الأخوة الإنسانية والنسبية ولا ينافيها.

ولذلك جاء في حديث الإمام أحمد والنسائي والطبراني والبيقهي والديلمي في الفردوس، وإن ضعَّفَه بعض أهل الحديث؛ جاء (مرفوعا للنبي ﷺ أنه قال: وأنا شهيد أن العباد كلهم إخوة)، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ...﴾ [الأعراف:65]، وهم مختلفون معه في الدين لكنه أخوهم في الأصل، أو أخوهم لأنه من قومهم ، قال الزجاج: "قيل في الأنبياء أخوهم وإن كانوا كفرة لأنه بشر مثلهم من ولد أبيهم آدم عليه السلام" ويقول القرطبي : "هودا عليه السلام قيل له أخوهم؛ لأنه منهم وكانت القبيلة تجمعهم. وقيل: إنما قيل لهم أخوهم لأنه من بني آدم كما أنهم من بني آدم، فأطلقت عليهم "أخوة" هنا؛ كونهم يشتركون في آدم عليه السلام وهو الذي تشترك فيه البشرية كلها .

والأخوة الإنسانية من الناحية الفلسفية مفهوم إنساني اجتماعي يرتبط في العلاقة بين أفراد البشر تلك العلاقة التي يكون قوامها الاحترام و العدل والإحسان؛ قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، ويقول المفسرون إن في قوله تعالى: (لتعارفوا) وجهين أي لتتناصروا لا لتتفاخروا أو لتتعاونوا لا لتتنافروا.

ثانيا : ليس معنى الأخوة الإنسانية أن لا تكون بل هناك أخوة غيرها بل هناك من الأخوة من هو أقوى منها كالأخوة دينية لكنه أضيق منه دائرة؛ فالأخوة الدينية هي عبارة عن الأخوة الإنسانية زائد الأخوة الدينية لأنها أكثر منها روابط ولكنها ليست ناسخة لها ولا منافية لها فنسبتها منها نسبة الأخص من الأعم؛ فالأخص يستلزم الأعم ولا عكس .

فالأخوة الدينية أخص من الأخوة الإنسانية وأضيق دائرة وأكثر حقوقا وواجبات لكنها لا تقتضي إبطال الأخوة الإنسانية في دائرتها الواسعة العامة التي تتسع للجميع، وليس معنى الأخوة الإنسانية أن تكون أمة واحد فتذوب الفوارق وتزول المميزات ونتفق في المبادئ والمعتقدات والمقاصد؛ بل ذلك مخالف للسنن الكونية والحكمة الإلهية، قال

تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:118-119]؛ فذلك تنوع يكون مصدر ثراء للبشرية ولا يكون مصدر صدام لها، ولا ينفي معنى الأخوة الإنسانية.

ولكن معنى أن الأخوة الإنسانية أن نتعايش في سلام وأن نلتزم بقواعد العدل والإحسان وأن نتعاون في المشترك كالسلم والعدل والحرية والتنمية ونتسامح في المختلف فيه، فلا يبغي بعضنا على بعض ولا يتطاول عليه ولا يستقوي عليه بما أوتي من قوة مادية، وقد أعطتنا شريعتنا الإسلامية دروسا عظيمة في التعايش مع الاختلاف منها قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة : 8].

ومنها تعايش أصحاب رسول الله ﷺ مع أهل الحبشة وهم غير مسلمين لكنهم لم يضطهدوهم ولم يظلموهم فليس معنى التعايش، قبول الظلم والاضطهاد فعزه الإسلام تأبى ذلك وهم أيضا: (المهاجرون) لم يسفهوا الحبشين ولم يحتقروهم فحكمة الإسلام وعدالته تأبى ذلك أيضا.

ومن هذه الدروس أن النبي صلى الله عليه عندما هاجر إلى المدينة وجدها تضمم عقائد مختلفة. وقبائل شتى فوضع وثيقة المدينة الدستورية التي تحدد معالم دولة الإسلام الجديدة والتي تضم اليهودي والنصراني والمشرك.

ولا يفرق بينهم في الحقوق فأقر فيها أن جميع أطراف هذه الوثيقة الموقعين عليها عليهم النصر والعون والنصح والتناصح والبر دون الإثم، وجعلت هذه الوثيقة أن الدفاع عن حدود هذه المدينة مسؤولية الجميع وأقرت حرية الإقامة والتنقل وحرية العبادة؛ فتأسست بموجب هذه الوثيقة دولة العدل والمواطنة ووضعت قواعد العيش السلمي المشترك فتعايش الناس بسلام .

ومنها أيضا أن الإسلام نادى نداءً خالدا يردد إلى اليوم إلى القيم التي قد تجمع الناس قيم الإيمان والعدل والوفاء واحترام الأنفس والصدق في المعاملة؛ فهي القيم التي تسع الجميع، ويمكن أن يتعايش في ظل احترامها الجميع في أمن وسلام، قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:151-152].

فهذه القيم التي يمكن أن تضمن الأخوة الإنسانية وهذا نداء القرآن إلى هذه القيم، فهو نداء إلى الاجتماع تحت قيم جامعة ينعم بها كل واحد بحقه وعدله فالتمسك بهذه القيم هو الضمانة الحقيقية للأخوة الإنسانية والتعايش السلمي.

ثالثا: إن مسؤولية تطبيق الأخوة الإنسانية والعمل بمقتضاها والانسجام مع مبادئها، وأخلاقياتها مسؤولية الجميع فكل في موقعه يتحمل جزء من هذه المسؤولية.

فعلى العلماء مسؤولية البيان بالتأصيل الشرعي وتوضيحه القواعد والنصوص المسيرة للعلاقات بين أبناء البشر عموما وبين أصحاب الديانات المختلفة خصوصا وأن الأصل في ذلك السلم والتعارف وأن الحروب حالات شاذة وعارضة يجب أن تزول بزوال مسبباتها، وأن نعمل جميعا على عدم حدوثها وتكرارها وأن القاعدة العامة التي تحكم العلاقات البشرية هي الأخوة الإنسانية التي تقتضي التعارف والتعاون والمسالمة وما يستحق أن يذكر في هذا المجال ويشكر مما قام بها شيخنا العلامة الشيخ عبد الله بن بيه حفظه الله من تأصيل لمفهوم السلم ونشر ثقافته وترسيخ مبادئه وتوضيح قواعد ومبادئ العيش المشترك والأخوة الإنسانية وما قدم في ذلك مبادرة حيث إنه كان رائدا في هذا العصر.

وتقع أيضا المسؤولية على الدعاة وهي مسؤولية نشر هذه المبادئ وتعميمها وتوعية الناس بأهميتها وخطورة مخالفتها والتنكر لها قال تعالى :﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ... ﴾ [آل عمران:187].

وتقع أيضا مسؤولية على الإعلاميين للترويج لمبادئ الأخوة الإنسانية والسلم والعيش المشترك والترويج لأهمية ذلك لتحقيق مصالح الدين والدينا وأن يبتعدوا عن الترويج لمبادئ الكراهية وإثارة النعرات وإذكاء الفتن بين الطوائف والمجتمعات.

وأن يبتعدوا عن إثارة الأحقاد الدفينة والرجوع بالذاكرة إلى مآسي التاريخ وآلامه ، وأن يذهبوا بها إلى آمال المستقبل الفسيح الآمن بإذن الله تعالى ، وأن يتقوا الله في أنفسهم ومجتمعاتهم وفي البشرية عموما فإنها عانت من فتن وحروب كثيرة كان اللاعب الرئيسي فيها الإعلام بما يقوم به من التحرش وتزييف الحقائق.

وتقع المسؤولية الكبرى والعظمى على القيادات التربوية والدينية والسياسية في العالم وخصوصا في العالمين المسيحي والإسلامي اللذان يتصدران المشهد البشري الآن ومشهد الأحداث.

إذ بتفهم هذه القيادات واقتناعها بضرورة التعايش السلمي والاعتراف بالآخر وحتمية المصير المشترك وبالتزامها بمبادئ العدل والإنصاف والتسامح تتحقق الأخوة الإنسانية لأن هذه القيادات هي صاحبة السيادة وصاحبة القرار في المجتمعات البشرية فهي التي تربي وتصنع الأجيال وهي التي توجه الرأي العام وتشرع له، وهي التي تتخذ قرارات الحروب والسلام؛ فلا يمكن أن تتحقق أخوة إنسانية ينعم فيها الكل بالأمن والسلام ما لم تتفهم هذه القيادات وتبذل جهدا لصالح التعايش السلمي.

ولا يمكن أن تنجح في ذلك إلا إذا حكمت العقل والعدل وابتعدت عن الغرور والغطرسة وراجعت حساباتها في الطموح الزائد إلى السيطرة والهيمنة والتفرد بالقرار والقيادة وتخلت

عـن التعصـب بالمبـادئ ومحاولـة فرضـه بالقـوة؛ فهـذه هـي الآفـات التـي تجـر إلـى الحـروب والمآسي ولن ينعم معها أحد بالسلام ولا الأمان.

وإذا كنـا نريـد فعـلا أن نحقـق أخـوة إنسـانية نتعايـش فيهـا بأمـن وسـلام فلابـد أن نتناصـح ونصـارح فنشـخص الـداء ونقـدم الـدواء، وليـس فينـا ممـن لا يعـرف مكمـن الـداء ولكنـه قـد لا يكـون قـادرا بمفـرده علـى تقديـم الـدواء؛ فأرجـو أن نخـرج مـن هـذا المؤتمـر بمشـروع واضـح المعالـم لتحقيـق الأخـوة الإنسـانية لنتعـاون عليـه ولنسـاهم فـي تجنيـب عالمنـا الحـروب والمشـاكل. واللـه نسـأله أن يوفقنـا وأن يعيننـا علـى الخيـر ويرزقنـا الصـدق والإخـلاص وصلـى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وجميع الأنبياء والمرسلين.